قصة مثل

- ٦ -

# لسانك حصانك

بقلم الدكتور

محمد ماهر قابيل

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

الإدارة : ١١ شارع جواد حسني

ص . ب ١٣٠ القاهرة - ت : ٣٩٢٥٥٢٣

٨١٨ محمد ماهر قابيل.
م ح ل س لسانك حصانك / بقلم محمد ماهر قابيل.- القاهرة : دار الفكر
العربى ؛ إيداع ١٩٩١.
١٦ ص : مص ؛ ٢٤ سم .- ( [سلسلة] قصة مثل ؛ ٦ )
تدمك : ٥ - ٦٠٥٠ - ١٠ - ٩٧٧.
١- الأمثال العامية العربية. أ- العنـوان. ب - السلسلة.

كانت المرة الأولى التى يصطدم فيها أحمد بمثل هذه المشكلة.

كان أحمد فتى ذكيا شجاعا نبيلا، طويل القامة، وسيم الوجه، مجتهدا فى دراسته. وكان أبوه محاميا بالنقض، مخلصا فى عمله، حازما فى تربية أبنائه، يحسن استخدام الثواب والعقاب، كما يحسن التوجيه والإرشاد.

كان يقضى صباحه فى المحكمة، أو فى غيرها من الجهات المتصلة بعمله، ومساءه فى مكتبه. أما يوم الخميس من كل أسبوع، فكان إجازته التى يحرص على قضائها مع أسرته.

وكان يدرس القضايا التى توكل إليه بعناية فائقة، فأخذ عنه أحمد الجد فى العمل، والالتزام بأداء الواجب.

وكان يملك مكتبة حافلة بالكتب فى شتى مجالات المعرفة: فى القانون والدين والفلسفة والتاريخ والاقتصاد والسياسة والاجتماع والأدب والفن واللغة. كان قارئا واسع الاطلاع، وباحثا مدققا، وناقدا، وكاتبا مجيدا. تأثر به أحمد. فكان بدوره شغوفا بالكتب الثقافية، والقصص العلمية والتربوية.

وكانت لدى الأب سيارة عتيقة صاحبته سنوات طويلة. وطالما اصطحب أسرته بها فى نزهات ورحلات يعودون منها بأجمل الذكريات. وكلما فكر الأب فى استبدال سيارة أحدث بسيارته تلك، عارضه أحمد فى أدب. فقد كان وفيا لها كأنها أحد أفراد الأسرة. وكان الأب يستجيب لأحمد، ويبقى من أجله على السيارة.

ولم يكن أحب إلى أحمد من الانطلاق بهذه السيارة مع أسرته إلى بيت جده. فقد كان مغنى أنيقا فسيحا من طابقين، يحلو لأحمد اللعب على سطحه أو فى فنائه حيث كانت النخلة الكبيرة المثمرة التى زرعها خاله، وأهداها إليه.

وكانت لأحمد أخت واحدة تكبره بسنوات، وتعامله لذلك معاملة الأم لولدها. فلم يحدث أن ساءت علاقتهما قط. كان يحتفظ بكتبه ولعبه فى مكتبة خشبية صغيرة. وكثيرا ما عاد من مدرسته فوجد قصة لطيفة مصورة أو لعبة جذابة مضافة إلى محتويات مكتبته. وعندئذ كان يتجه بالشكر على الفور إلى أخته. فقد كان يعلم من تجارب سابقة أنها صانعة مثل هذه المفاجآت السارة.

كان يذهب إلى مدرسته مبكرا، وينصرف إلى مذاكرته ليلا، ويخرج إلى الخلاء بعد ظهر الخميس من كل أسبوع للترويح والتريض. وكان أخوه الأصغر محمد طالبا فى ذات المدرسة. فكانا يذاكران معا، ويخرجان معا، ويعودان معا.

وكان محمد حاد الطبع، يثور وينفعل، ولا يسيطر على غضبه. ولذلك فقد كان كثيرا ما يختلف مع أخيه الأكبر فى مواقف عابرة سرعان ما تنتهى.

كان أبوهما قد وعدهما بهديتين إذا حصلا على درجات عالية فى امتحانات منتصف العام. وقد وفى الأب بوعده: فاشترى لأحمد آلة حاسبة، ولمحمد ساعة مكتب. وحاول محمد أن يستعمل آلة أخيه الحاسبة، لكنها وقعت من يده وكسرت. فقال له أحمد فى استياء:

– ألن تتعلم الحذر أبدا؟

وظل محمد صامتا، فتابع أحمد قائلا:

– ألا تكترث بما فعلت؟

ولم ينبس محمد ببنت شفة، فقال أحمد:

– لابد أن أكسر لك ساعتك كما كسرت آلتى.

نال التهديد من محمد فصاح حانقا:

– أنت تعلم أننى لم أكن أقصد كسر آلتك هذه.

قال أحمد معنفا:

– تقصد أو لا تقصد. يجب أن تنال جزاءك على خطئك.

رد محمد فى حدة:

– لست أنت الذى تملك هذا الحق.

قال أحمد مشيرا بيده:

– أنا أخوك الكبير. وسأعرف كيف أتصرف معك.

قال محمد، وهو يوشك أن يشتبك مع أخيه بيديه:

– أنت لست كبيرا علىّ.. ولو أقدمت على أى تصرف فسأشكوك لأبى، وأقول له إننى لم أتعمد كسر آلتك، لكنك تعمدت إيذائى.

كاد أحمد يضرب أخاه. لكن أخته

أقبلت عليهما قائلة:

- اعتذر لأخيك يامحمد .

وفعل محمد، فالتفتت إلى أحمد قائلة:

- غدا أشترى لك آلة حاسبة.

* * *

وذات يوم، جلس الأخوان يتحدثان فى شرفة البيت عن دراستهما. فقال أحمد:

- اقتربت السنة من نهايتها.

رد محمد، وهو يهز رأسه:

- واقترب الامتحان.

قال أحمد بثقة:

- لست خائفا. لقد استعددت له.

قال محمد، وهو ينظر من الشرفة إلى السماء:

- لكن للامتحان رهبته رغم كل شئ.

أشاح أحمد بيده وقال:

- اعتدنا على الامتحانات.

أصر محمد على إبداء قلقه قائلا:

- مهما اعتدنا.

وضحكا معا. ثم قال أحمد:

- إننى أفكر فيما بعد الامتحان.

سأله محمد:

- تقصد النتيجة؟

أجاب أحمد:

- بل الإجازة.

أشرق وجه محمد، وقال مبتسما:

- كم أتوق إلى السفر.

وافقه أحمد بقوله:



- الإجازة هى السفر. ولا إجازة بغير سفر.

قال محمد ضاحكا:

- ولا سفر بغير إجازة. كانت رحلة العام الماضى إلى المصيف أكثر من رائعة.

استرجع أحمد ذكرياتها قائلا:

- البحر.. الأمواج.. الصخور.. الزورق .. والسفينة الشراعية.. ورمال الشاطئ الناعمة.

قال محمد مستكملا:

- ولا تنس شواء السمك.

أضاف أحمد بلهجة تمثيلية:

- والجمبرى والكابوريا والمحار. لا تبخسها حقوقها من فضلك.

قال محمد، وهو يرفع إصبعه مؤكدا:

- طبعا.. وإلا امتنعت عن تشريف مائدتنا.

اعتدل أحمد فى جلسته كمن تذكر شيئا مهما، وقال فى لهجة الجد:

– ولكننى أريد الذهاب إلى الريف هذا العام.

احتج محمد قائلا:

– الريف! لا ياسيدى.. آسف.. الترعة والتراب والطين والحمير والجاموس والبقر والضأن والماعز والجمال والناموس والذباب.

قال أحمد محاولا إقناعه:

– المتعة فى التغيير.

قال محمد معترضا:

– ليس إلى الأسوأ.

قال أحمد فى تعجب:

– ولماذا تعتبر الريف هو الأسوأ؟ لكل مكان بهجته.

قال محمد مستهزئا:

– هل ترغب فى التدرب على سباحة الترع؟ أم أنك تريد أن تجرب الإصابة بأمراضها؟

ثم أضاف بسخرية:

– وبدلا من الذهاب إلى الملاهى والمسارح فى المساء نتحلق حول الراوى لنسمع سيرة بطل من أبطاله. ياللتخلف!

قال أحمد بصبر:

– الريف يا محمد جزء من بلدنا.. وهو ليس متخلفا كما تتصور. إنه مصدر خير. وفيه تستطيع أن تقترب من صفاء الطبيعة وهدوئها ورقتها وبساطتها. تستيقظ مع الفجر، فتؤدى الصلاة، وتتأمل الشروق، وتنصت إلى تغريد الطيور حرة على الأغصان، وحفيف أوراق الأشجار، وهدير المياه العذبة المتدفقة.. تسير بين الحقول، وتراقب الغروب، وتنهل من كل ذلك الجمال.

قال محمد بنبرة المستبد:

– لا تحاول معى. لن أوافق.

نفد صبر أحمد، فقال:

– لا تهمنى موافقتك. سنذهب.. شئت أو لم تشأ.

قال محمد، وقد استفزته لهجة أخيه:

– هل تفرض رأيك علىّ؟

أجاب أحمد بصوت عال:

– أنا أخوك الكبير.

قال محمد متحفزا:

– أنا مثلك بالضبط.

قال أحمد مويخا:

– يبدو أنك نسيت نفسك.

أو شكت المشادة أن تتحول إلى مشاجرة، لولا تدخل الأم فى الوقت المناسب. إذ أقبلت على صياحهما قائلة:

– ما الذى جرى؟

أجاب محمد مندفعا:

– الأستاذ يريد السفر إلى الريف فى إجازة الصيف. نترك المصيف لنذهب إلى الريف.

قالت الأم فى دهشة:

– أين أنتما من الصيف والإجازة؟

رد أحمد فى خجل:

– كان مجرد كلام.

قالت الأم فى حزم:

– كان من المفروض أن يبدى كل منكما رأيه. ثم تتركا لنا اتخاذ القرار بدلا من أن تتعاركا هكذا كديكين هنديين.

قال أحمد:

– لكنه يجب أن يتعلم كيف يخاطبنى.. كيف يتعامل مع من هو أكبر منه.

قال محمد غاضبا:

– أنت المخطئ.. أنت الذى بدأت بالإساءة.

قالت الأم لهما معا:

– من يتكلم بالخير، يسمع الخير.

لكنهما تخاصما. فأصبح كل منهما يذاكر وحده، ويلعب وحده، ويخرج وحده، ويعود وحده.

وجاء يوم الخميس. فذهب أحمد إلى نزهته المعتادة، وبقى محمد فى البيت على غير العادة.

أحس أحمد وهو يسير بالوحدة، وافتقد صحبة أخيه، فجلس قليلا على شاطئ النهر، وتذكر أحاديثه الجميلة مع محمد تحت الشجرة الكبيرة. ثم عبر الجسر إلى الضفة الأخرى، وهناك قابل عبدالرحمن.

كان عبدالرحمن قريبا لأحمد يكبره بسنوات. لكنه كان يسكن بعيدا.. على الضفة الأخرى من النهر. وكان يلتقى بأحمد وأخيه فى بعض الأحيان أثناء نزهتهما الأسبوعية. لذا استرعى انتباهه أن يكون أحمد وحيدا هذه المرة، فبادره بالسؤال:

– أين محمد يا أحمد؟

أجاب أحمد باقتضاب:

– فى البيت.

عاد عبدالرحمن يسأل فى قلق:

- أهو مريض؟

رد أحمد، وهو يشيح بوجهه:

- لا.

ازداد قلق عبدالرحمن لطريقة أحمد فى الرد. فقال:

- إذن لماذا لم يأت معك؟ ماذا حدث يا أحمد؟

قال أحمد فى نبرة أسف:

- سوء تفاهم وقع بيننا.





دعاه عبدالرحمن للجلوس على مقعد حجرى. ثم قال:

- سوء تفاهم؟ عهدى بك واسع الأفق، جم الأدب، قريب التسامح.

كيف تسمح أن يعكر صفو علاقتك بأقرب الناس إليك شئ؟

نظر أحمد عبر النهر قائلا:

- ليته كان شيئا. إذن لتنازلت عنه . أنت تعلم عنى ذلك فى علاقتى بأخى .

لكننى لا أقبل المساس بكرامتى.

قال عبد الرحمن مستشعرا الموقف:

- ماذا قال لك محمد حتى تتأزم الأمور بينكما إلى هذا الحد؟

أجاب أحمد، وهو يرنو إلى صائد سمك يؤدى فريضة الصلاة وحيدا على مركبه الشراعية الصغيرة وسط النهر:

- كاد أن يتشاجر معى لمجرد أننى رغبت فى الذهاب إلى الريف خلال الإجازة الصيفية.

ابتسم عبدالرحمن قائلا:

- أهذه هى المشكلة؟ ياله من خلاف مترف! وأين يريد محمد أن يقضى إجازته إن شاءالله؟

قال أحمد:

- فى المصيف طبعا.

قال عبدالرحمن معاتبا:

- ألم نقل يا أحمد إن اختلاف الآراء لا يغير الود؟ إننا نختلف فى كثير من صفاتنا. خذ مثلا بصمات أصابعنا.. إنها تتباين من شخص إلى آخر لحكمة عليا قد تكون الاستدلال على الشخصية، والتحقق منها. كما أن فى اختلاف ميولنا حكمة أخرى قد تتمثل فى تعدد الحرف والمهن اللازمة للحياة. بل إن فى تفاوت أدياننا ومذاهبنا حكمة جليلة قد تقصر أذهاننا عن إدراكها، لكن الله سبحانه وتعالى يشير إليها. كثيرا ما تحدثنا فى ذلك. فكيف تسمح لخلاف عابر أن يؤثر على علاقتك بأخيك؟

قال أحمد فى حياء:

- يبدو أننا نعجز أحيانا عن فعل ما نقول.

نظر عبدالرحمن إلى صائد السمك الذى يصلى فى مركبه قائلا:

- إن الله يكره لنا أن نقول ما لا نفعل.. لكنه يعلم أننا بشر يمكن أن نخطئ؛ فيأمرنا ألا نصر على الخطأ، وألا نتمادى فيه. بل علينا أن نعجل بتداركه.

ثم أردف فى لهجة التقدير:

- هذا ما أثق أنك ستفعله.. أترى هذا الصائد الفقير؟ إنه فى قناعته وإيمانه مثل يحتذى.. كم يأسرنى مرآه يصلى وسط النهر على مركب صغير. ولو كنت مكانه لخشيت أن ينقلب بى أثناء الركوع أو فى السجود.

ضحك أحمد. فاستطرد عبدالرحمن قائلا:

- هؤلاء الناس لهم هموم كثيرة وكبيرة. لكنهم يعتصمون بيقينهم الفطرى.. ولو أننا تأسينا بهم لاستعلينا على أغلب ما ينغص علينا عيشنا.

بدا الاقتناع على وجه أحمد. فتابع عبدالرحمن:

- السفر إلى الريف.. السفر إلى المصيف.. يالها من صغائر.. لو أنك لم تسافر على الإطلاق ففى وسعك أن تصنع بإجازتك الكثير مما يفيدك ويمتعك.

كان الليل قد أرخى سدوله، فصافح أحمد عبدالرحمن مودعا. ثم سار بين النباتات الخضراء، وملأرئتيه بالهواء النقى، فشعر بالانتعاش، لكنه سمع صوتا لم يتبينه، فصاح قائلا:

- من هناك؟

فسمع صوتا يقول:

- من هناك؟

واستاء أحمد من الرد. فقال:

- أنا الذى أسأل.

وسرعان ما سمع:

- أنا الذى أسأل.

استشاط غضبا، وقال:

- أجب يا أحمق.

جاءه الرد:

- أجب يا أحمق.

ورفع أحمد صوته إلى أقصى درجة قائلا:

- اظهر لى ياجبان.

فسمع الصوت مرتفعا يقول:

- اظهر لى ياجبان.

ساءه أن ترتد عليه شتائمه. فقال:

- أيها الببغاء المغفل.

لكن هذه ارتدت عليه أيضا بذات كلماتها:

- أيها الببغاء المغفل.

ازداد غضب أحمد. فهتف:

- يبدو أننى سأعلمك درسا فى الأدب.

وعاد الجواب:

- يبدو أننى سأعلمك درسا فى الأدب.

ولم يبصر أحمد الشخص الذى رد عليه كلماته. فعاد إلى البيت حزينا ليجد أباه جالسا فى حجرة المائدة يقرأ بعض الصحف، وإلى جانبه فنجان من القهوة.

ألقى أحمد تحية. ثم انتحى أحد الأركان صامتا، فأدرك أبوه بحس الأبوة المرهف أن هناك ما يشغله، ولا سيما أن أخاه لم يشاركه نزهته.

وضع الأب الصحيفة التى فى يده على المائدة قائلا:

- كيف حالك يا أحمد؟

أجاب أحمد مطرقا:

- بخير يا أبى.

دعاه أبوه للجلوس قريبا منه. ثم سأله:

- ما الذى يضايقك؟

قال أحمد فى خجل:

- لاشئ.

سأله أبوه فى حنان:

– لماذا لم تصحب أخاك فى نزهتك؟

قال أحمد:

– إننى لا أكلمه منذ أيام. اقترحت أن نقضى إجازة الصيف فى الريف، فاعترض بطريقة آلمتنى.

تجاوز الأب مؤقتا عن ذلك، وسأله:

– هل قابلت أحدا اليوم؟

قال أحمد:

– نعم.. عبدالرحمن.. تحدثنا معا بعض الوقت.

وتردد قليلا.. ثم أردف:

– وشخصا آخر.. لم أقابله بالتحديد.. لكننى خاطبته، فرد علىّ دون أن يظهر لى، وساءنى احتجابه، فشتمته، فرد علىّ الشتم.

وسكت أحمد لحظة.. ثم استطرد متعجبا:

– والغريب أنه كان يرد علىّ بذات كلماتى: كلمة كلمة.

قال الأب موضحا:

– إنه ليس شخصا آخر يا أحمد.. إنه صوتك ارتد إليك.. هذا هو الصدى.. رجع الصوت.

وضحك أحمد طويلا. فقال له أبوه:

– إن الصدى يا أحمد يعلمك درسا مهما.. إنه يعيد إليك ما تقول. فلو أنك قلت حسنا لسمعت حسنا.

أدرك أحمد مغزى التجربة الطريفة. بينما قال الأب:

– ولعلك تستخلص من ذلك عبرة فى علاقتك بأخيك.. وبسائر الناس. فلو أنك احتفظت بهدوئك، ولم تفقد حلمك، لما حدث ما حدث.

ثم تابع الأب قائلا:

– أما إجازة الصيف، فسوف نجلس جميعا فى بدايتها معا لنتفق على كيفية قضائها.. وربما قضيناها فى الريف.. وربما فى المصيف.. وربما فيهما معا على التوالى، أو فى مكان ثالث.. لكن المهم أن نتفق على ذلك فى ود، وأن يسود الحب علاقاتنا دائما.

قال أحمد:

– إننى لا أتشبث برأيى، ولا أتعصب له. إننى على استعداد لتقبل الرأى الآخر، والأخذ به إذا أقنعنى. لكن أسلوب محمد هو الذى تسبب فى تلك المشادة.

قال الأب:

– ألم أقل لك: لو قلت حسنا لسمعت حسنا؟ أرجو ألا تنسى الصدى بعد ذلك.

قال أحمد ضاحكا:

– إن الصدى لا يترك صوتا عاليا دون أن يلقنه درسه.

قال الأب:

– وعلينا أن نتعلم من الصدى يا أحمد. لسانك حصانك. إن صنته صانك، وإن أهنته أهانك.

وسعى أحمد فى التو إلى أخيه فصالحه، وحكى له حكايته مع الصدى، وضحكا معا فى سعادة.

ومن يومها لم يختلف الأخوان أبدا..

ولم يفترقا أبدا.



| | |
|---|---|
| رقم الإيداع | ٧٨٢٠ / ١٩٩١ |
| الترقيم الدولى | ٥ - ٠٥٠٦ - ١١ - ٩٧٧ |